إيماناً جديداً بالإيمان الأول ، وإياك أنْ ينحلّ عنك الإيمان . إذن : إذا طُلب الموجود فالمراد استدامة الوجود .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ .. (٥٢) ﴾ [الفرقان] أي : بما جاءك من القرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾ [الفرقان] واعلم أنك غالب بأمر الله عليهم ، ولا تقُلْ : إن هناك تيارَ إشراك وكفر وإيمان ، وسوف أعطيك مثلاً كونياً في أهم شيء في حياتك ، وهو الماء :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ[1] الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[2] وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) ﴾

تأتي هذه الآية استمراراً لذكْر بعض آيات الله في الكون التي تلفت نظر المكابرين المعاندين لرسول الله ، وسبق أنْ ذكر سبحانه : الظل والليل والرياح .. الخ إذن : كلما ذكر عنادهم يأتي بآية كونية ليلفتهم إلى أنهم غفلوا عن آيات الله ، وجدالهم مع رسول الله يدل على أنهم لم يلتفتوا إلى شيء من هذا ؛ لذلك ذكر آية كونية من آيات الله المرئية للجميع ومكررة ، وعليها الدليل القائم إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان]

المَرْج : المرعى المباح ، أو الكلأ العام الذي يسوم فيه الراعي ماشيته تمرح كيف تشاء.

فمعنى ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان] أي : جعل العَذْب والمالح يسيران ، كُلٌّ كما يشاء ، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة التي تمثل

---

(١) مرج : أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر . قاله مجاهد . وقال ابن عرفة : أي خلطهما فهما يلتقيان . وقال الأزهري : مرج البحرين . خلّى بينهما . [تفسير القرطبي ٧/٤٩٣٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسى منتظم ، بل تجده تعاريج والتواءات ، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة ، وكأن الماء يسير على (هواه) ودون نظام ، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة .

وكذلك الأنهار التى تولدتْ من الأمطار على أعلى الجبال ، فتراها حين تتجمع وتسير تسير كما تشاء ، ملتوية ومُتعرِّجة ؛ لأن الماء يشقُّ مجراه فى الأماكن السهلة ، فإنْ صادفته عقبة بسيطة ينحرف هنا أو هناك ، ليكمل مساره ، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا) .

إذن : الماء عَذْبٌ أو مالح يسير على هواه ، وليست المسألة (ميكانيكا) ، وليست منتظمة كالتى يشقُّها الإنسان ، فتأتى مستقيمة .

ونلحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضى الإنسان حاجته فى الخلاء ، فينزل البول يشقّ له مجرىً فى المكان الذى لا يعوقه ، فإنْ صادفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواه .

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب ، كما نقول الشمسان للشمس والقمر .

ومرْج البحرين آية كونية تدل على قدرة الله ، فالماء مع ما عُرف عنه من خاصية الاستطراق - يعنى : يسير إلى المناطق المنخفضة ، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر ، ولو اختلطا لَفَسدا جميعاً ؛ لأن العَذْب إنْ خالطه المالح أصبح غيْرَ صالح للشرب ، وإنْ خالط المالح العذب فسد المالح ، وقد خلقه الله على درجة معينة من الملوحة بحيث تُصلحه فلا يفسد ، وتحفظه أن يكون آسناً .

فالماء العذب حين تحصره فى مكان يأسن[1] ويتغير ، أمّا البحر

(١) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١/ ٢٠] .

فقد أعدَّه الله ليكون مخزن المـاء فى الكون ومصدر البَخْر الذى تتكون منه الأنهـار ؛ لذلك حـفظه ، وجـعل بينه وبين المـاء العذب تـعايشـاً سلْمياً ، لا يبغى أحدهما على الآخر رغم تجاورهما .

وقوله تعالى : ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : مُفرط فى العذوبـة مستـساغ ، ومن هذه الكلمـة سَمَّـوْا نهر الفـرات لعذوبة مائه ، فلَـيس المراد بالفرات أن المـاء كمـاء نهر الفرات ؛ لأن الـكلمة وُضـعت أولاً ، ثم سُـمِّىَ بهـا النهـر ، ذلك لأن القـرآن هو كـلام الله الأزلى .

﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : شديد الملوحة ، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائية ، وتتغذى عليه كما تتغذى على الماء العَـذْب ، كمـا قال سبـحانه : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢)﴾ [فاطر]

ثم يقول سـبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] البرزخ : شىء بين شيئين ، وأصل كلمة برزخ : اليابسة التى تفصل بين ماءين ، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج .

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] الحِجْـر : هو المانع الذى يمنع العَذْب والمالح أنْ يختلطا ، والحِجْر نفسـه محجور ، مبالغة فى المنع من اختـلاط الماءيْن ، كمـا جاء فى قـوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

ومثل قوله تعالى : ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

وفى آية عامة عن الماء ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : كل شىء فيه حياة فهو من الماء ، لا أن الماء داخل فى كل شىء ، فالمعنى : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء موصوف بأنه حى ، فالماء - إذن - دليل الحياة ؛ لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائيةَ فتموت .

والإنسان الذى كرَّمه الله تعالى وجعله أعلى الأجناس ، خلقه الله من الماء ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(١) ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق] وهو ماء له خصوصية ، وهو المنىُّ الذى قال الله فيه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القيامة]

والبشر أى : الإنس ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان] فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان : ذكور وإناث ، فكلمة (نَسَبًا) تعنى : الذكورة (وَصِهْرًا) تعنى : الأنوثة ؛ لأن النسب يعنى انتقال الأدنى من الأعلى بذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان..الخ .

---

(١) الترائب : عظام الصدر . [القاموس القويم ١/٩٩] . قال ابن عباس : هذه الترائب . ووضع يده على صدره . وعنه أيضاً : تربية المرأة موضع القلادة . [تفسير ابن كثير ٤/٤٩٨] .

فالنسب يأتى من ناحية الذكورة ، أما الأنوثة فلا يأتى نسب ، إنما مصاهرة ، حينما يتزوج رجل ابنتى ، أو أتزوج ابنته ، يُسمُّونه صهْراً .

لذلك قال الشاعر :

وَإِنَّما أُمَّهَاتُ القَوْمِ أَوْعِيةٌ   مُسْتحدثات وللأَحْسَابِ آبَاءُ

فمن عظمة الخالق - عز وجل - أن خلق من الماء هذيْن الشيئين ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة]. وقد توصَّل العلماء مُؤخَّراً إلى أن بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها فى نوع الجنين ، وما هى إلا حاضنة للميكروب الذَّكَرى الآتى من منىِّ الرجل .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة]

فالذكَر والأنثى كلاهما من المنىِّ ، والذى يُطلق عليه العلماء الآن (الإكس ، والإكس واى) فالحيوان المنوىّ يخرج من الرجل ، منه ما هو خاص بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة .

وهذه الظاهرة واضحة فى النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُخصِّبها إلا الأقوى من الذكور ، لذلك تطير الملكة على ارتفاعات عالية ، لماذا ؟ لتنتخب الأقوى من الذكور .

كذلك الميكروب ينزل من الرجل ، والأقوى منه هو الذى يستطيع أن يسبق إلى بويضة المرأة ، فإنْ سبق الخاص بالذكورة كان ذكراً ، وإنْ سبق الخاص بالأنوثة كان أنثى ، والحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

وبهذه الآية الكونية فى خَلْق الإنسان نرد على الذين يحلو لهم أن يقولوا : إن الإنسان خُلق صُدْفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتَركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة ، إلا أن الذكَر يختلف فى الجهاز التناسلى وكذلك الأنثى ، فهل يُردّ هذا إلى الصدفة ؟

ومعلوم أن الصُّدْفة من أعدائها الاتفاق ، فإذا جاء الذكَر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أن يلتقيا على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة ؟! إذن: المسألة ليست مصادفةً ، إنما هى غاية مقصودة للخالق عزوجل .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) ﴾ [الفرقان] وذكر سبحانه القدرة هنا ؛ لأن هذه مسألة دقيقة لا تحدث إلا بقدرة الله تعالى .

وقد فَطِن العرب حتى قبل نزول القرآن إلى هذه العملية بالفطرة ، فهذه زوجةَ أبى حمزة تعاتبه ؛ لأنه تركها وتزوج من أخرى ، لأنها لم تَلِدْ له ذَكَراً ، فتقول :

مَا لأَبى حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا ... غَضْبَان ألاَّ نَلِدَ البَنِينَا
تَاللَّهِ مَا ذَلِكَ فى أَيْدِينَا ... فَنَحْنُ كَالأَرْضِ لِغَارِسِينَا
نُعطِى لَهُمْ مِثْلَ الذى أُعْطِينَا

وهذه المسألة التى فَطِن إليها العربى القديم لم يعرفها العلم إلا فى القرن العشرين .

وبعد هذه الآية الكونية يعود ـ سبحانه وتعالى ـ إلى خطابهم مرة أخرى لعل قلوبهم ترقّ ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتعهدهم مرة بالنُّصح ، ومرة بإظهار آياته تعالى فى الكون .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يعنى : أيليق بهم بعد أنْ أوضحنا لهم كلَّ هذه الآيات أنْ يلتفتوا إلى غير الله ، ويقصدوه بالعبادة ؟

وقوله تعالى : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ.. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] البعض يرى أن هذه الآلهة نعم لا تنفع لكنها تضر ، نقول لهم : هى لا تنفع ، ولا تضر ، أمَّا الذى يضر فهو الإله الحق الذى انصرفوا عنه إلى عبادة غيره ، والمعنى هنا : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ.. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ عبدوه ﴿ وَلا يَضُرُّهُمْ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ كفروا به وتركوه .

والقرآن يُسمِّى فعلهم مع هذه الآلهة عبادة ، وهم أنفسهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

إذن : أثبتوا لهم عبادة ، والعبادة طاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه ، فما الذى أمرتْهم به الأصنام ؟ وما الذى نهتْهم عنه ؟ فكلمة عبادة هنا خطأ ، وهم ما عبدوا هذه الآلهة إلا لأنها لا أوامر لها ولا التزام معها ، فتديّنهم تديّن (فنطزية) .

وما أسهلَ أن تعبد إلهاً لا يأمرك ولا ينهاك ، والذى يكرهونه فى التديُّن الحقيقى أنه التزام وتكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك ترى المسرفين على أنفسهم من خَلْق الله يتمنى كلٌّ منهم أن يكون هذا الدين كذباً ، لماذا ؟ ليسيروا على هواهم ، ويعملوا ما يحلو لهم . كذلك رأينا الدجالين الذين ادَّعَوْا النبوة بداية من

مسيلمة وسجاح[1] ، كيف كانوا يجذبون الناسَ إليهم ؟ كانوا يجذبونهم بتخفيف الأوامر وتبسيط الدين ، ولما شقَّتْ الزكاة على البعض أسقطوها من حسابهم ، وأعفَوْا الناس منها .. إلخ .

ولكل زمان دجالون يناسبون العصر الذى يعيشون فيه ، وفى عصرنا الحاضر دجالون يُخفِّفون عنك الدين ويُطوِّعونه لأهواء الناس ورغباتهم ، فلا مانع عندهم من الاختلاط ، ولا بأس فى أن ترتدى المرأة من اللباس ما تشاء .. إلى آخر هذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) ﴾ [الفرقان]

الظهير : هو المعين ، كما ورد فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ..وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

وكانوا فى الماضى يحملون الأحمال على الظَّهْر قبل اختراع آلات الحمل ، وحتى الآن نرى (الشيالين) يحملون الأثقال على ظهورهم ، ويخيطون لهم (ظهرية) يرتدونها على ظهورهم ؛ لتحميهم ساعة حَمْل الأثقال ، وإذا أراد أحدهم معاونة الآخر يقول له : أعطنى ظهرك ، فكان الظهر إذن بهذا المعنى .

---

(١) هى : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بنى يربوع ، أم صادر ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ وكانت فى بنى تغلب بالجزيرة ، وتبعها جمع من عشيرتها ، فأقبلت تريد غزو أبى بكر ، فالتقت بمسيلمة وتزوج بها ، ثم انصرفت راجعة إلى أخوالها بالجزيرة ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والى البصرة لمعاوية . توفيت ٥٥هـ (الاعلام للزركلى ٣/٧٨) .

والظهر أيضاً يقتضي العلو ، ومنه قوله تعالى عن السد الذى بناه ذو القرنين : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] يعنى : ما استطاعوا اعتلاءه .

لكن ، كيف يكون الكافر ظهيراً على الله ؟ قالوا : لأنه يفعل المعصية ، ويتخذ أُسْوة فيها يُقلده الناس ، ولو كان طائعاً لكان أُسْوة خير ونموذجَ صلاحٍ ، فالكافر أسوة شر ، وأسوة فساد ، وهو شيطان الإنس الذى يوازى شيطان الجن الذى عصى ربه ، ورفض السجود لآدم .

وتوعَّد ذريته حين قال : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)﴾ [الحجر]

وكلٌّ من شياطين الجن وشياطين الإنس يستعين بالنفس فيُسلِّطها على صاحبها حتى تُوقعه ، فالإنسان حينما يستمع لنداء الشيطان ، سواء شيطان الإنس أو شيطان الجن ويطيعه بعمل المخالفة ، فإنه يُعينه على الله ، والمعنى الصحيح : على معصيةِ الله .

كما أن الظهير يُطلق على مَنْ جعلْتَه وراء ظهرك ، لا تأبه به ، ولا تلتفت إليه ، ومنه قول العرب : (لا تجعلنَّ حاجتى منك بظهر) يعنى : اجعلها أمام عينيك لا تطوِها وراء ظهرك[1] .

إذن : فكلاَ المعنيين جائز : ظهيراً أى : مُعيناً ، كأن الحق ـ تبارك وتعالىَ ـ يقول لنبيه ﷺ : اعلم يا محمد أنَ الكافر ظهير على الله ، فقفْ له بالمرصاد ، وجاهده ما استطعتَ ، فكأنه تعالى يُحمِّس

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : ظهر « يُقال للشىء الذى لا يُعنى به : قد جعلت هذا الأمر بظهر ، ورميته بظهر . وقولهم : لا تجعل حاجتى بظهر أى : لا تنسها . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. (٩٢)﴾ [هود] وهو استهانتك بحاجة الرجل . وجعلنى بظهر أى : طرحنى » .

رسوله ليقف هذا الموقف ، ويُشجِّعه ليكون من عدوه على حَذَر وعلى يقظة .

أو : ظهيراً لا يُؤبه له ، وهذا طمأنة لرسول الله ، فالكافر هَيِّن على الله ، فلا يهمك كيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ ﴾

صحيح أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة] لكن لا يعني هذا أن يهلك رسول الله نفسه في دعوتهم ، ويألم أشد الألم لعدم إيمانهم ؛ لأن مهمة الرسول البلاغ ، وقد أسف رسول الله لحال قومه حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

وما أمره الله بجهاد الكفار والمنافقين إلا ليحفزه ، فلا يترك جُهْداً إلا بذله معهم ، وإلاَّ فأنت عندي مُبشِّر ومُنذر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أي : بالخير قبل أوانه ليتلفت الناس إلى وسائله ﴿ وَنَذِيراً ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أي : بالشر قبل أوانه ليحذره الناس ، ويجتنبوا أسبابه ووسائله .

ثم يوجه رب العزة نبيه ورسوله ﷺ :

﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ ﴾

في آية أخرى يقول تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠)﴾ [الطور]

يعني : غير قادرين على دَفْع الثمن ؛ لأنهم بخلاء وعندهم كزازة[1] ؟ أو لا يريدون أنْ يُخرجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به ؟ مع أنك لم تسألْهم أجراً ، فهل يَعنى ذلك أن النبى كان من المفروض أن يسألهم أجراً ؟

قالوا : نعم ؛ لأنه إذا قدَّم إنسانٌ لإنسان شيئاً نافعاً ، فعليه أن يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة ، وكأنه ﷺ يقول لهم : لقد قدَّمتُ إليكم جميلاً يفترض أن لى عليه أجراً ، لكنى لا أريد منكم أجراً ، والمسألة من عندى تفضُّل .

وما هو الأجر ؟ الأجر : جُعْلٌ يقابل عملاً ، والثمن : جعل يقابل تملُّكاً ، وقيمة هذا الجُعْل تختلف باختلاف مشقة العمل ، وطُول زمنه ، ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل .

فكل مسألة من هذه ترفع من قيمة الأجر ، فحين تسافر مثلاً تحتاج إلى (شيَّال) يحمل لك الحقائب ، فتعطيه الأجر الذى يتناسب ومجهوده ، فإن استأجرت سيارة وسِرْتَ بها مسافة فلا بُدَّ أن الأجر سيزيد ؛ لأنه أخذ مجهوداً ووقتاً أكثر ، فإن احتجتَ مثلاً سباكاً ليصلح لك شيئاً فسوف ترى ما فى هذا العمل من المشقة ، ولا تبخل عليه بأكثر من سابقيه .

وربما كان العمل فى نظرك بسيطاً لا يستغرق وقتاً ، لكنه يحتاج إلى مهارة ، هذه المهارة ليست وليدة اللحظة ، ولكنها مجهود ونتيجة

---

(١) الكزّ : الذى لا ينبسط . ووجه كزٌّ : قبيح . ورجل كز : قليل الخير . والكزازة : اليُبْس والانقباض . [لسان العرب ـ مادة : كزز] .

عوامل من التعلُّم والخبرة حتى وصل صاحبها إلى هذه المهارة .

فالمهندس مثلاً الذى يُصمِّم لك منزلك فى ساعة أو ساعتين ، ومع ذلك يطلب مبلغاً كبيراً ، لماذا ؟ لأنه لا يتقاضى أجراً على هذا الوقت ، إنما على سنوات طويلة من الدراسة والمجهود والتحصيل ، حتى وصل إلى هذه المهارة .

إذن : كل أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ، ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطرة ومهارة .. إلخ .

وإذا كان الأمر كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته ، انظروا إلى المنهج الذى جاءكم به ، وكيف أنه يريحكم مع أنفسكم ، ويريحكم مع المجتمع ، ويريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ، ومن شرور الناس جميعاً .

إذن : للرسول عمل كبير ومجهود عظيم ، لو قدَّرْتَ له أجراً لكان كذلك عظيماً . إن الإنسان إذا أجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟ فالنبى يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك فى نفسك وفى مالك وفى عِرْضك وفى كل ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة إنما يحميك من الناس أجمعين .

بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا ، إنما تتعدَّى إلى الآخرة ، فتحميك فيها حماية ممتدة لا نهايةَ لها ، فإنْ قدَّرْت لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقول لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً فى الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسان لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أمَّا الذى يُقدِّر ذلك فهو ربِّى الذى بعثنى ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لى من أجر على ذلك فهو قليل .

وحكينا قصة الرجل الطيب الذى قابلناه فى الجزائر ، يقف على الطريق يُلوِّح لسيارة تحمله ، فوقفنا وفتحنا له الباب ليركب معنا ، وقبل أن يركب قال : بكَمْ ؟ يعنى : الأجرة . فقال له صاحبى : لله ، فقال الرجل : إذن فهى غالية جداً . هذا هو المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ.. (٢٩) ﴾ [هود]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] فما العلاقة بين الأجر وبين ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] ؟

كأن المسلم ينبغى عليه أن يعمل العمل ، لا لمن يعمل له ، ولكن يعمله لله ليأخذ عليه الأجر الذى يناسب هذا العمل من يده تعالى ، إنما إنْ أخذه من صاحبه فهو كالذى « فعل ليقال وقد قيل » وانتهتْ المسألة ، وربما حتى لا يُشكر على عمله .

لذلك وردتْ هذه العبارة على ألسنة كل الرسل : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٠٩) ﴾ [الشعراء] وليس هناك آية طلب فيها الأجر الظاهر إلا هذه الآية التى نحن بصددها : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان]

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ..(٢٣) ﴾ [الشورى]

ومعنى : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] أى : سبيلاً للمثوبة ، وسبيلاً للأجر من جهاد فى سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء .. إلخ .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ..(٥٧) ﴾ [الفرقان] تدل على التخيير فى دَفْع الأجر ، فالرسول لا يأخذ إلا طواعية ، والأجر : ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] من الجهاد والعمل الصالح ، فكأن أجر الرسول

العمل للغير ، لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ونلحظ في آيات الأجْر أنها جاءت مرة ﴿أَجْراً ..(٩٠)﴾ [الأنعام] ومرة[1] ﴿مِنْ أَجْرٍ ..(٥٧)﴾ [الفرقان] والبعض يرى أن (من) هنا زائدة ، وهذا لا يُقال في كلام الله ، عَيْب أن نتهم كلام الله بأن فيه زيادة ، فكلُّ حرف فيه له معناه .

وسبق أن ضربنا لمنْ هذه مثلاً بقولنا : ما عندي مال ، وما عندي من مال . فالأولى نفَتْ أنْ يكون عندك مالٌ يُعتدُّ به ، لكن قد يكون عندك القليل منه ، أما القول الثاني فيعني نَفْي المال مطلقاً بدايةً ممَّا يقال له مال ، إذن : فأيّهما أبلغ في النفي ؟ فمنْ هنا تفيد العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ..(٧٢)﴾ [المؤمنون] لماذا ؟ لأنه سيعطيك ويُكافئك علىُ قَدْره هو ، وبما يناسب جُودَه تعالى وكرمه الذي لا ينفد ، أما الإنسان فسيعطيك على قَدْره وفي حدود إمكاناته المحدودة .

ملْحظ آخر في هذه المسألة في سورة الشعراء ، وهي أحفَلُ السُّور بذكْر مسألة الأجر ، حيث تعرَّضَتْ لموكب الرسل ، فذكرت ثمانية هم : موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

---

(١) - وردت (أجْراً) في ٦ آيات : (الأنعام : ٩٠) ، (هود : ٥١) ، (يس : ٢١) ، (الشورى : ٢٣) ، (الطور : ٤٠) ، (القلم : ٤٦) .
- ووردت (من أجر) في ١٠ آيات : (يونس : ٧٢) ، (يوسف : ١٠٤) ، (الفرقان: ٥٧) ، (الشعراء ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠) ، (سبأ : ٤٧) ، (ص : ٨٦) .

تلحظ أن كل هؤلاء الرسل[1] قالوا : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء] عدا إبراهيم وموسى عليهما السلام لم يقولا هذه الكلمة ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تطلب أجراً على عمل قمتَ به لا يكون هناك ما يُوجب عليك أنْ تعمل له مجاناً ، فأنت لا تتقاضى أجراً إنْ عملتَ مثلاً مجاملةً لصديق ، وكذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ أول ما دعا إلى الإيمان دعا عمه آزر ، ومثل هذا لا يطلب منه أجراً ، وموسى عليه السلام أول ما دعا دعا فرعون الذى احتضنه وربَّاه فى بيته ، ولو طلب منه أجراً لقال له : أىّ أجر وقد ربّيتك[2] وو .. إلخ .

الآية الأخرى في الاستثناء هى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ..(٢٣)﴾[الشورى] فكأن المودة فى القربى أجر لرسول الله ﷺ على رسالته ، لكن أىُّ قُرْبى : قُرْبى النبى أم قُرْباكم ؟

لا شكَّ أن النبى الذى يجعل حُبَّ القريب للقريب ورعايته له هو أجره ، يعنى بالقُرْبى قُرْبى المسلمين جميعاً ، كما قال عنه ربُّه عزَّ وجلَّ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..(٦)﴾ [الأحزاب]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾

---

(١) - قالها نوح فى : (يونس : ٧٢) ، (هود : ٢٩) ، (الشعراء : ١٠٩) .
- وقالها هود فى : (هود : ٥١) ، (الشعراء : ١٢٧) .
- وقالها صالح فى : (الشعراء : ١٤٥) .
- وقالها لوط فى : (الشعراء : ١٦٤) .
- وقالها شعيب فى : (الشعراء : ١٨٠) .

(٢) ورغم أن موسى عليه السلام لم يطلب منه أجراً ، لا مالاً وملكاً ولا غيره إلا أن فرعون امتن عليه بأنه الذى رباه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] .

الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن رسوله ﷺ : يا محمد لا تهتم بكثرة الكفار ومكرهم بك وتعاونهم مع شياطين الإنس والجن ؛ لأن هؤلاء سيتساقطون ويموتون ، إما بأيديكم ، أو بعذاب من عند الله ، وعلى فَرْض أنهم عاشوا فلن تغلب قوتُهم وحِيلُهم قوة الله تعالى ومكره ، وإنْ توكلوا على أصنام لا تضر ولا تنفع ، فتوكل أنت على الله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان]

والعاقل لا يتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك في كل ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضي لك مصلحة ، وفي الصباح تسمع خبر موته ؟

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينصح خَلْقه : إنْ أردتَ أنْ تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لا يتخلى عنك ، على مَنْ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . هذه هي الفطْنة .

لكن ما جدوى أن تتوكل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أن فيه حياةً دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبه عليك .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان] سبِّح يعني : نزِّه ، والتنزيه تضعه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فلله وجود ، ولك وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجودك ، ولله صفة ولك نفس الصفة ، لكن صفته تعالى ليست كصفتك ، ولله تعالى فعل ، ولك فعل ، لكن فعله تعالى ليس كفعلك .

إذن : نزِّه الله في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله عن مشابهة الخَلْق ، وما دام الحق سبحانه مُنزَّهاً في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فأنت تتوكّل على إله لا تطرأ عليه عوامل التغيير أبداً .

وهذا التنزيه لله تعالى ، وهذه العظمة والكبرياء له سبحانه فى صالحك أنت أيها الإنسان ، من صالحك ألاَّ يوجد لله شبيه ، لا فى وجوده ، ولا فى بقائه ، ولا فى تصرُّفه ، من صالحك أن يعرف كل إنسان أن هناك مَنْ هو أعلى منه ، وأن الخَلْق جميعاً محكومون بقانون الله ، فهذا يضمن لك أن تعيش معهم آمناً ، إذن : من الخير لنا أن يكون الإله ليس كمثله شىء ، وأن يكون سبحانه عالياً فوق كل شىء .

ويجب عليك حين تُنزه الله تعالى ألاَّ تُنزِّهه تنزيهاً مُجرّداً ، إنما تنزيهاً مقروناً بالحمد ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان] فتحمده على أنه واحد لا شريك له ، ولا مثيلَ له ، وليس كمثله شىء ، ففى ظل هذه العقيدة لا يستطيع القوىُّ أن يطغى على الضعيف ، ولا الغنى على الفقير .. إلخ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) ﴾ [الفرقان] نقول : كفاك فلان . يعنى : لا تحتاج لغيره . كقولنا : حَسْبُك الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره ؛ لأنه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه ، ويمنع عنك الشر ، وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقيم لك (كنترولاً) يضبط حياتك ويضمن لك السلامة ، لذلك حين تدعو الله فلا يستجيب لك ، لا تظن أن الله تعالى موظفٌ عندك ، لا بُدَّ أن يُجيبك لما تريد ، إنما هو ربك ومتولٍّ أمرَك ، فيختار لك ما يصلح لك ، ويُقدِّم لك الجميل وإن كنت تراه غير ذلك .

وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً بالأم التى تكثِر الدعاء على ولدها ، فكيف بها إذا استجابَ الله لها ؟ إذن : من رحمة الله بها أنْ يردَّ

دعاءها ، ويمنع إجابتها ، فمنع الإجابة هنا إجابة .

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) ﴾ [الفرقان] المعنى : إذا توكلتَ على الحيِّ الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ، ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

ألم يقُل الحق لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) ﴾ [المجادلة]

فما زال القَوْلُ فى أنفسهم لم يخرج ، ومع ذلك أخبره الله به ، وكأن الحق سبحانه يُطمئن رسوله : مهما تآمروا عليك ، ومهما دبّروا لك ، ومهما تكاتف ضدكَ جنودُ الإنس والجن ، فاطمئنْ لأن ربك عليم بالذنوب التى قد لا تدركها أنت ، ولا حيلةَ عندك لردِّها ، فيكفيك أن يعلم اللهُ ذنوبَ أعدائك .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

والخبير : الذى يعلم خبايا الأمور ، حتى فى مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعى لها الخبير ؛ لأن المختص العادى لا يقدر عليها .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ثم ينقلنا الحق - تبارك وتعالى - إلى آية كونية ، تنضاف إلى الآيات السابقة ، والهدف من ذكر المزيد من الآيات الكونية أنه لعلَّها تصادف رِقَّة قلب واستمالة مواجيد ، فتعطف الخَلْق إلى الخالق ، وتُلفت الأنظار إليه سبحانه .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾

البعض يظن أن خَلْق السموات والأرض شيء سهل ، وأعظم منه خَلْق الإنسان ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فالإنسان يخلقه الله ، وقد يموت بعد يوم ، أو بعد مائة عام ، وقد تصيبه في حياته الأمراض ، أمّا السموات والأرض ، فقد خلقها الله تعالى بهندسة دقيقة ، وقوانين لا تتخلف ولا تختل مع ما يمرُّ عليها من أزمنة ، وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : إن السموات والأرض هذه خلْقتي وصَنْعتي ، لو تدبرتَ فيها وتأملتَها لوجدتَها أعظم من خَلْقك أنت .

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٩) ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تكلَّمنا في هذه المسألة وقلنا : إن جمهرة آيات القرآن تدل على أن الخَلْق تمَّ في مدة ستة أيام إلا سورة واحدة تُشعِر آياتها أن الخلق في ثمانية أيام ، وهي سورة فصلت :

حيث يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ[1] فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي

(١) الدخان : يُطلق على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتم احتراقها ، وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة ، والمقصود أن مواد النجوم كانت في حالة غازية كالدخان ثم خلق منها السماوات [القاموس القويم ١/ ٢٢٤] .